في خـــيف منى

للدكتور الحاج عبد الوهاب عزام

هـذا ثانى أيام التشريق ؛ ومنى غاصّـة بمضاربها ؛ قد اجتمع إليهـا الحجيج من أرجاء الأرض، واختلط فيهـا وفود المسلمين من كل الأقطار. تجاورت القباب واشـتجرت الأطنـاب ، وتعجت السبل بينها تجور بالسائر ، وتعدل بالسالك، إن لم يكن خبرَها وعرف بالعلامات مسالـكها ، إلا مَهْيعاً يتوسط البقعة تُفضي إليه المسالك فيقصد فيه السابل على بينة

زخرتْ منى بالحجيج ، وازدحم الموسم بأهله . وقد أدينا بحمد الله المناسك ولم يبق إلا رمى الجمار ، وهى أمر أمَم لا يشغل نزّال منى إلا قليلاً . فهناك سعة للتزاور والتعارف ، وهناك فسحة لتبادل الآراء والتشاور في خطوب المسلمين

خرجت فى رفاقة بعض الاخوان العراقيين أبتغى زيارة بعض الأجلاء من علماء الفرس ، فلما لقيت الشيخ وبلغ الحديث منتهاه رغبت أن أرى من وجوه المسلمين وجهاً معروفاً فى مجامع الحج منذ سنين لا يخلو منه موسم ، ولا يجهله محفل . وقد رأيته فى عرفات ضارباً مخيمه على الجادة فنزلت إليه فى نفر من رفقائى حجاج الجامعة وأنسنا به حيناً . وبينا أنا بالمشعر الحرام من مزدلفة رأيت خطيباً واعظاً يتكلم على جماعة باللغة الأردية ، فدلفت إليه فإذا هو ذلك الوجه المعروف غير المنكر ، وأنا أرجو ألا يفوتنى فى منى لقاؤه ؛ ومضربه فى منى أرفع المضارب ، يلوح للسائر عالياً متميزاً تخفق عليه رايته . فليس على من يبغى المسير إليه إلا أن يذهب إلى مسجد الخيف ثم ينظر إلى سفح الجبل ليرى فسطاطاً كبيراً قد احتل من السفح مستوى لا يتسع لغيره، فليس هناك فسطاط سواه . فإذا تأمله أبصر الراية الأفغانية فعرف أنه منزل السيد محمد الصادق المجددى

أخذت سمت المكان حتى قاربت المسجد فلقينى جماعة من حجاج الجامعة والأزهر فصمدنا إلى الفسطاط فى شَرَف يطل على الموسم كله وينظر إلى مسجد الخيف من كثب . لبثنا قليلاً ثم هبطنا إلى فجوة بين الصخور تُسمى غار المرسلات ؛ يقال إن السورة الكريمة «والمرسلات عرفا» أوحيت إلى صاحب الرسالة صلوات الله عليه هناك . وقد اجتمع الناس يمنعهم الشرطة من الدخول إليه والتمسح به كما كانوا يفعلون . فوقفنا وقفة قضينا بها حق الذكرى العظيمة ، ثم سرنا مُصعدين فى الجبل وهو جبل شاهق أدكن عظيم الصخور كثير القَلَع[1] . فما زلنا نصّعد حتى لاح لنا الموسم جميعه ، وزُويت لنا أطرافه ؛ فيالك مشهداً جميلاً رائعاً ! فهذا مسجد الخيف وهو مسجد برّىّ معطل من الزينة وفراشه الحصباء : بناء كبير تحيطه جدران مديدة بيضاء ، يتوسط صحنه الفسيح مصلى عليه قبة ومنارة ، وفى جانبه القبلى سقيفة على ثلاثة عقود . وقد راقنى منظره من سفح الجبل تتجلى فيه فطرة الاسلام وطبيعة البداوة

وهذا المحصّب عن شمالنا حيث العقبات الثلاث التى ترمى فيها الجمرات . وإلى اليمين يمتد وادى منى بين سطرين من الجبال الشاهقة يساير فيه الطرفُ أسرابَ الخيام إلى أن يكلّ . وهناك تبدو دار الملك عبد العزيز التى ينزلها أيام الموسم . وهنالك بناء أبيض يلوح بين الأشجار هو (السبيل) المصرى : مورد عذبٌ يستقى منه الحجاج ، يزدحمون عليه النهار كله وطرفاً من الليل . وإنها لمبرّة عظيمة

وأما الجبل الشامخ الذي يمتد على جانب الوادى الأيسر فهو ثبير . وكم ردد التاريخ والشعر ذكر ثبير !

ترادفت الذكر وتوالت العبر فى هذه البقعة المقفرة التى تخصب بالجماعات كل عام منذ عهد الجاهلية ، فكأنى بالقبائل تلتقى تتناشد الأشعار ، وتتفاخر بالاحساب ، ويضعون عنهم العداوة والحرب إلى حين ، وقد تغلبهم الضغائن فيفجأ بعضهم بعضاً غير مراعين

(١) القلع : الصخور الكبيرة تقلع من الجبل

حرمة الشهر والمكان كما أغارت هوازن على خزاعة بالمحصّب من منى فقال أحد بنى عدوان :

غداة النقينا بالمحصّب من منى فلاقى بنو العنقاء إحدى العظائم

وكأنى بهم ينحرون ويذبحون ويضيفون ويطعمون ، ويشرّقون بقايا اللحم على سفح الجبل .

وكأنى بفتيان قريش وشمراء مكة فى الجاهلية والاسلام يقضون حق المكارم والفتوة ؛ يضيفون ويطعمون ويشيدون بالمفاخر ويتناشدون الشعر ويتناقلون الأخبار ، وينزع بهم الشباب فيتغزّلون ويرون فى الموسم على جلاله وحرمته شملا من الأحبّاء يجتمع ، وشملا يفترق ، فيشيد الشعر بفرحة اللقاء ولوعة الفراق ، فهذا عمر بن أبى ربيعة يقول :

نظرت إليها بالمحصّب من منى ولى نظر لولا التحرج عارم

فقلت : أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك خلف الستر أم أنت حالم

بعيدة مهوى القُرط إما لنوفل أبوها و إما عبد شمس وهاشم

ومن قبل تذكر المجنون فى هذا المكان ليلاه :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أطراب الفؤاد ومن يدرى

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

وهذا البرجىّ — وغفران له — يقول :

فى الحج إن حجت وماذا منى وأهله إن هى لم تحجج ؟

وأنا أقول ما قال عطاء حسين استوقفه ابن سريج فغنّاه أبياتاً منها بيت البرجى قال :

« الخير كله والله عنى ، لا سيما وقد غيبها الله عن مشاعره »

والبرجىّ هو القائل :

عوجى علىّ فسلمى جبرُ ! فيم الوقوف وأنتم سَفر ؟

لا نلتقى إلا ثلاث منى حتى يفرّق بيننا النفر

ورحم الله جريراً ! كان أرشد من هؤلاء : لقيه الفرزدق بمنى فأنشده :

فانك لاقٍ بالنازل من منى نخاراً ؛ فخبرنى بمن أنت فاخر ؟

فقال جرير : « لبيك اللهم لبيك »

فمهتنى تلبية جرير فقلت : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك الخ كم فى هذه الخيام من قلوب وردت هذه المشاهد ورود القطا الظماء ! وكم من نفوس هجرت خفض العيش إلى مشقة الأسفار ، وغربة الديار ، لتنعم بالذكر والتوبة فى هذه البقاع المقدسة .

لو نفض كل قلب هنا آماله وآلامه لسامت هذه الجبال جبالٌ من أحزان البشر وأمانيهم حملها أصحابها إلى سدّة الخالق العظيم يستغفرون ويتضرعون ، ويسترحمون ويتذللون . سرائر لو اجتمعت فى هذه الساعة لتمثل فيها تاريخ البشر . لو اجتمعت ! لو تشاكى أصحابها وتناجى أربابها ! لو تشاكى المسلمون فى هذه البقعة وبث بعضهم لبعض خبايا قلبه ، وتشاوروا فيما يحز بهم ! أجل ، هذه خيام مجتمعة ، وجماعات مختلطة ، وبينها تعارف وتزاور ، ولكن أين هذا مما يريد الاسلام ونريد ؟ لا بدّ أن ييسر لكل حاج السير والزيارة ، ويمكّن من أن يلقى من يشاء حين يشاء . إن مئات الآلاف من الحجاج لا تتيسر لهم مقاصدهم ولا تُكفل راحتهم إلا فى نظام دقيق وترتيب حسن . وذلك لن شاءه جدٌّ يسير . وعلى المسلمين جميعاً أن يعملوا له . لماذا لا يكون فى منى مجمع مسقوف يسع الحجاج جميعاً يقفون أو يجلسون فى راحة ونظام ، فيسمعون جميعاً إلى الخطباء من زعماء المسلمين يرفعون أصواتهم بالمجاهر ! لماذا لا يكون هناك مدرّج ينحت فى الجبال ليسع الألوف المؤلفة ؟ هذا أمر حتم لا بد أن تتخذ له الأهبة .

طالت بى الوقفة وأصحابى على مقربة منى ! فقلت : هذا أمر له غير هذه الوقفة . ثم التفتّ فإذا أعرابى بجانبى تفترّ شفتاه عن أسنان ناصعة وفى فمه عود

قلت : ما هذا ؟ قال : بشام . قلت ، الذى يقول فيه جرير :

أتذكر إذ تودّعنا سليمى بفرع بشامة ؟ سُقى البشام

قلت : وما هذا ؟ مشيراً إلى شجرة صغيرة من الشجر الذى يسمى السنط فى مصر . فقال : سَلَم . فتذكرت قول القائل :

ويوماً توافينا بوجه مقسم كأنْ ظبية تعطو إلى وارق السلم

وقول الحجاج : والله لأعصبنكم عصب السلمة الخ

قلت : أتستطيع أن تأتينا بأعواد من البشام ؟ قال : إنه على الربع الآخر ، وأشار إلى الجبل يعنى سفحه الآخر . فتذكرت الآية الكريمة : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون » والربع المكان المرتفع قلت لأصحابى : لو اتسع الوقت لأخذنا كثيراً من اللغة عن هذا الأعرابى . فمن كان يظن أن هذه ألفاظ ميتة فى المعاجم فليعلم أنها لا تزال حية فى أفواه كثير من العرب . وحان الرجوع فرجعنا إلى الخيام

عبد الوهاب عزام